دور التنغيم في التواصل اللساني

أحمد البايبي

الكلية المتعددة التخصصات الرشيدية

0. تمهيد:

تهدف هذه المقالة إلى الكشف عن دور التنغيم[1] Intonation في التواصل اللساني، وتبيان وظيفته التواصلية بما يسمح بإزالة أشكال الالتباس الدلالية والتركيبية والكشف عن نوايا المتكلمين المنفلتة انفلاتا لاواعيا من خلال نطاقاتهم التنغيمية. إن للتنغيم دورا في التواصل، ومن شأن الإخلال به أن يشوش على العملية التواصلية الفعالة وقد يعرقلها تماما.

ولمقاربة هذا الموضوع نقترح العناصر التالية: التواصل اللساني والوظيفة الانفعالية التعبيرية للتنغيم ودورها في التواصل اللساني، والوظيفة التركيبية للتنغيم ودورها في التواصل اللساني وأخيرا الوظيفة الدلالية للتنغيم ودورها في إزالة الالتباس الدلالي.

1. التواصل اللساني: يمثل التواصل سيرورة تحوي عددا من السلوكات الإنسانية، منها اللغة والإيماءة والنظرة والمعمار ولغة الجسد... أي هو: "مجموع ما ينتجه الإنسان عبر لغته وأشيائه وجسده وإيماءاته وطقوسه ومعماره يندرج ضمن سيرورة تواصلية متعددة المظاهر والوجود والتجلي إلى الحد الذي يجعل الثقافة في كليتها سيرورة تواصلية دائمة"[2].

وبناء عليه يمكن أن نميز بين نظامين من التواصل الإنساني:

1-تواصل لساني: يقوم على الإخبار برسالة معينة بين المرسل والمرسل إليه، وهذه الرسالة تتكون من عناصر لسانية من قبيل الجمل والجميلات والمركبات والكلمات والصرفيات والتفاعيل والمقاطع والقطعات والتطريزات.

2-تواصل غير لساني: حيث تتشكل الرسالة من عناصر غير لسانية من قبيل الظواهر المصاحبة للغة، والحركات والإيماءات والمعمار ولغة الجسد والنظرات وحجم المسافة الفاصلة بين المرسل والمرسل إليه والموسيقى والأصوات غير اللغوية... وكل السلوكات غير اللغوية.

إن التواصل الذي نروم الكشف عن دور الوحدات الصواتية الفونيمية والتطريزية في إنجازه يندرج ضمن ما يسمى بالتواصل اللساني الذي يعتبر ظاهرة معقدة تسهم في دلالة إرساليته مجموعة من

مصادر الإخبار وهي التي تتفاعل في الكشف عنها المستويات اللسانية كافة: (التركيب والمعجم والدلالة والصرافة والصواتة والأصواتية والتداولية...).

فإذا كان التركيب يعنى بوصف الكيفية التي تتألف من خلالها المركبات الاسمية والفعلية... لتشكل جملا، وإذا كانت الصرافة تعنى بوصف الكيفية التي تتجمع من خلالها الكلمة والجذور والجذوع وأجزاء الكلمة أو الصرفات (المورفيمات) لتشكل كلمات دالة لسانيا، فإن الصواتة تعنى بالملامح الصواتية القطعية Segmental Features وفوق القطعية Suprasegmental Features أو بعبارة أخرى الملامح الفونيمية Phonemic Features والملامح التطريزية Prosodic Features التي منها التنغيم والنغم والنبر والوقف والطول والإيقاع.

إن الصوت المتسلسل على محور الزمن يشكل ما يسمى بالسلسلة الكلامية التي قطّعتها المدارس اللسانية التقليدية (باستثناء المدرسة الفيرثية التطريزية (أو مدرسة لندن)) تقطيعا قطعيا Segmental Segmentation؛ أي جزأت تلك السلسلة إلى قطع صامتية ومصوتية (وفي التراث العربي حروف وحركات).

وترافق الصوت المتسلسل إخبارات متزامنة ولكنها مستقلة، وتتكون -زيادة على القطع الصامتية والمصوتية والملامح القطعية- من الأنغام والنبرات، والمدود والوقوف والإيقاعات... ومن المقاطع والتفعيلات والكلمات، والمركبات (الصواتية والتنغيمية) والأقوال...الخ. وعلى مستوى التمثيل لم تعد المستويات خطية بل هي هرمية وتراتبية؛ حيث يوجد كل مستوى في مرقى، وتقترن المستويات فيما بينها أو تتناغم، وهو ما أبدعت في تمثيله مختلف النظريات الصواتية الحديثة كالصواتة المستقلة القطع Autosegmental Phonology والصواتة العروضية Metrical Phonology وصواتة هندسة الملامح Features Geometry Phonology وغيرها.

إن التطريزات من الملفوظ المتزامن والمستقر فوق الوحدات القطعية، ولذلك سميت ملامح فوق قطعية Suprasegmental Features في مقابل الملامح القطعية Segmental Features أو الملامح الفونيمية. ومن ثمة فإننا من الذين يعتبرون اصطلاح "تواصل لفظي" ملبسا، لأنه يقصي الملامح التطريزية مما هو لفظي رغم طبيعتها الصواتية المقطوع بها وإن كانت همشت في المدارس اللسانية الكلاسيكية. ومن هنا نتساءل في هذا المقال عن دورها في التواصل من خلال ملمحها المميز المسمى "التنغيم".

2. التنغيم والتواصل اللساني: يسهم التنغيم في تحقيق التواصل اللساني؛ إذ من الواضح أن بعض المعاني تنقل بواسطته أثناء التواصل الكلامي، ومن هذه المعاني: المعنى الاجتماعي والانفعالي علاوة على المعنى المرجعي[3] وهذه المعاني وغيرها تسهم في ضمان وضوح الرسالة التي يتلقاها المستمع من المتكلم، ولعل هذه الميزة تملكها النطاقات التنغيمية في ذاتها وهو ما لا تملكه باقي الملامح القطعية والتطريزية على حد سواء وهذا ما انتبه إليه فوكس بقوله: "إن للتنغيم بالكاد عددا من المميزات التي تميزه عن الملامح التطريزية الأخرى. ففي المقام الأول إن للتنغيم **معنى**، أما الملامح الأخرى، التطريزية وغير التطريزية، لا معنى لها في ذاتها، لكنها تفيد فقط في التمييز بين المفردات اللسانية المختلفة على مستوى المعنى. إذن، قد يكون للملامح من قبيل النبر والنغم تنوع في الوظائف الصواتية، لكنها في واقع الأمر تتقاسم مع الملامح القطعية أنها لا تحمل معنى بصورة ملازمة."[4]

إن التنغيم يحمل من خلال نطاقاته معان، وهو ما سنبينه بتفصيل عند الحديث عن وظائفه، ولكن تأثيراته لا تتوقف عند هذا الحد، فهي تكون أقوى في الاستراتيجيات التواصلية للمتكلم؛ وذلك عند مقاطعته لمتكلم آخر، أو أثناء طرحه السؤال طلبا للتوضيح أو عند رغبته في تغيير الموضوع أو إنهاء المناقشة أو أثناء قيامه بمناظرة غيره أو عند رغبته في إجبار السامع على الإجابة...إلخ. إنها مواقف تواصلية يكون فيها التنغيم وسيلة فعالة في التواصل اللساني.

فللتنغيم ولنظيره النغم في كافة اللغات الطبيعية أدوار تواصلية مؤثرة، وهما معا يشكلان "لحن الكلام" speech melody يقول أبيركرومبي (1967) في مناقشته لـــ"تموج العلو الموسيقي" الذي اعتبره أهم خواص دينامية الجهر: "وأما مصطلح "**لحن الكلام**"، فهو موجود في اللغات كلها، لكن ثمة تنوعا كبيرا للغاية في النماذج التي تكونه، وفي طبيعة الوظيفة اللغوية التي يؤديها، فهو ليس جزءا من اللغة فحسب، بل إنه، فضلا عن ذلك، جزء متميز جدا"[5].

1.2 وظيفة التنغيم الانفعالية التعبيرية ودورها في التواصل اللساني: يقصد بهذه الوظيفة التعبير عن الأحاسيس والانفعالات التي تختلج داخل نفس المتكلم من قبيل: الخوف، والشجاعة، والحزن، والفرح، والتعجب، والتعظيم، والحسرة، والرضى، والغضب، واليأس، والأمل، والشك واليقين... وهو ما يطلق عليه مالمبرج وبرزنهان الأهداف الأسلوبية[6].

إن التنغيم يكشف عن نوايا المتكلم وعن حالته النفسية من خلال انفعالاته التي تنفلت منه بطريقة لا واعية في صورة نطاقات تنغيمية والتي تشكل ما سمي بـــ"لحن الكلام". فإذا أخذنا، على سبيل المثال، الجملة التالية:

أ. جاء المسؤول الكبير.

فإن النطاقات التنغيمية التي ينطق بها المتكلم تكشف عن حالته النفسية التي قد تكون فرحا بهذا المسؤول الكبير. وقد تكون حزنا وأسفا على قدومه، وهو ما تعكسه النطاقات التنغيمية الموظفة من طرف المتكلم. وقد تكون مجرد إخبار بخبر عاد فتصاغ في قالب تنغيمي تقريري. إن الجملة، على المستوى التركيبي، واحدة ولكن التنغيم متعدد.

ومثل ذلك يمكنك أن تلمسه في قولك إذا كنت باثا للخطاب:

ب. ثعبان.

فإذا دخلتَ علينا وقلت:

ب.1. ثعبان! بنغمة صاعدة وسريعة فإن ذلك يشعرنا نحن –معشر المستمعين– بخوفك الشديد وبوضعيتك الحرجة.

أما إذا خاطبتنا بنغمة واحدة monotone هادئة: **ب.2. ثعبان،** فإن فهمنا لن ينصرف إلا إلى تلقي خبر جديد عاد، وهو رؤيتك ثعبانا ربما في التلفاز، وأنت لست في خطر منه.

بينما إذا استعملت نطاقات تنغيمية أخرى فمددت صوتك وتلبثت في نطقك وتلذذت برسالتك:

ب.3. ثعبان! فإن كل متلق منا سينصرف فهمه إلى أنك تتعجب من قوة الثعبان وربما بالغت في نغماتك قاصدا التعبير عن شجاعتك في قتل هذا الثعبان أو الأفعوان الخطير!

لقد استعمل بعض اللسانيين اصطلاح "لحن الكلام" للدلالة على التنغيم وأسند إليه وظائف عديدة ولا شك أن لحن الكلام أو القول، لخطورته التواصلية المتمثلة في التعبير عن الانفعالات النفسية والكشف عن النوايا الدفينة، انتبه إليه النص القرآني وجعله وسيلة لمعرفة السرائر وذلك في قوله تعالى: "**ولتعرفنهم في لحن القول**" يقول ابن كثير مفسرا هذه الآية: "أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أي الحزبين هو، بمعاني كلامه وفحواه وهو المراد من لحن القول، كما قال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: (ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه) "[7].

والحاصل أن التنغيم الذي يشكل جزءا من لحن الكلام يكشف نوايا المتكلمين من خلال انفعالاتهم النفسية أونطاقاتهم التنغيمية باصطلاح الصواتيين.

2-1-وظيفة التنغيم التركيبية ودورها في التواصل اللساني:

ويقصد بها التفريق بين أنواع الجمل، وتبيان وظائفها النحوية من خلال التمييز بين أسلوب تركيبي وآخر. فلكل جملة قالب تنغيمي خاص بها، تتفرد به ولا تقاسم فيه جملة أو جملا أخرى، "وهذا النمط يجب اتّباعه ومراعاته في النطق بكل جملة من هذه الجمل وإلا عد المتكلم لاحنا، وكان شأنه شأن رفع المفعول ونصب الفاعل."[8] وبهذا تتنوع القوالب التنغيمية بتعدد الجمل وتنوع الأساليب ما بين الخبر والاستفهام والتأكيد والأمر والنهي والإثبات والنفي والقسم والنداء... فالمنحنيات التنغيمية الموظفة في الخبر تختلف عن المنحنيات التنغيمية المستعملة في الاستخبار، وتلك الواردة في الأمر لا تطابق نظيرتها في النهي، وهكذا... وبهذا فالتنغيم "حَكَمٌ في دلالات التراكيب والجمل، إذ يغير الجملة من تركيب إلى آخر ومن باب إلـــى باب..."[9].

وللوقوف على هذه الخطورة التي يكتسيها التنغيم في التفريق بين الجمل، مما يؤثر على التواصل الفعال، نأخذ الجملة التالية:

د. فاز الفريق العلمي. يمكن أن تدل هذه الجملة على الاستفهام إذا كان التنغيم يدل على ذلك وهو ما تعكسها –على مستوى اللغة المكتوبة– علامة الترقيم الدالة على الاستفهام:

د.1. فاز الفريق العلمي؟ ويمكن أن يدل فقط على جملة خبرية إذا كان التنغيم تقريريا فحسب. كما يمكن أن تدل على التعجب إذا كان المتكلم متعجبا وهو ما تعكسه في المكتوب علامة التعجب:

د.2. فاز الفريق العملي!

إن التنغيم يسخر لوظائف تواصلية تميز بين الجمل وهذا أيضا مطلوب في قراءة النصوص ومنها النص القرآني. والذي يخل بذلك يعتبر لاحنا لأنه عرقل عملية التواصل كما هو مطلوب في التواصل اللساني المنطوق. يقول أبو العلاء العطار الهمذاني: "وأما اللحن الخفي فهو الذي لا يقف على حقيقته إلا نحارير القراء ومشاهير العلماء، وهو على ضربين: أحدهما لا تعرف كيفيته ولا تدرك حقيقته إلا بالمشافهة وبالأخذ من أفواه أولي الضبط والدراية. وذلك نحو مقادير المدات، وحدود الممالات والملطفات والمشبعات والمختلسات، والفرق بين النفي والإثبات، والخبر والاستفهام (...) إلى ما سوى ذلك من الأسرار التي لا تقيد بالخط، واللطائف التي لا تؤخذ إلا من أهل الإتقان والضبط"[10] فالقارئ الذي ليس له القدرة على التمييز بين الأساليب والأبواب يقع في اللحن الخفي، إذ التمييز بين هذه الأبواب والأساليب ضروري لتحقيق كمال الترتيل[11]. وتأمين التواصل الفعال.

والمسألة لا تقتصر على التمييز بين الأبواب النحوية وأنواع الأساليب التركيبية بل قد يقوم التنغيم بدور رقابي على التركيب والصرف العربيين، ويتجلى هذا الدور في إزالة الالتباس الذي قد ينجم عن العلاقات التي تنسجها المقولات التركيبية فيما بينها من جهة، وفي فك الغموض الناتج عن توظيف صورة مقولة تركيبية أو صرفية واحدة للإحالة على متعدد[12]. وقد نبهت الأدبيات اللسانية من مختلف الاتجاهات إلى "دور التنغيم (...) في رفع مثل هذا الالتباس. ويمكن أن نذكر في هذا الصدد، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر، أعمال كل من لوهيست (1960) وأوكانور وطولي (1964)، وزويـــكي وصادوك (1975)، وهورست (1975) وپـــاتل (1977). وقد انتهى أغلب الدارسين، على الرغم من اختلاف تصوراتهم، إلى أن التنغيم إن لم يسهم كله في رفع اللبس التركيبي وبذلك تُـــدرج ملامح تنغيمية في النحو، فهو، على الأقل، مؤشر مساعد إلى جانب مؤشر أساس قد يكون هو التركيب نفسه."[13]

ويمكن أن ندرج في هذا الصدد بعض المقولات النحوية ذات الصبغة المزدوجة التي تشترك في صورتها ولها أكثر من إحالة دلالية، والتي إذا تكررت في جملة واحدة حدث اللبس التركيبي، ولكن التنغيم سيتدخل بوصفه مصفاة ومراقبا للتركيب قصد الحسم. ومعلوم أن تكرار الصورة نفسها أو المقولة نفسها في الموقع ذاته يعتبر عند النحاة العرب تكرارا مرفوضا، ولذلك فإن جهاز الحاسوب الذي نكتب عليه هذا العمل يسطر برنامجه النحوي على كل كلمة مكررة ظنا من واضعه أن الأمر يتعلق بلحن تركيبي، بيد أن مصفاة التنغيم تستبعد هذا اللحن؛ ونمثل لهذه الظاهرة[14] بمثال أورده الفراء بقوله: "فإذا قال القائل: (مَا مَا قلتُ بـــحَسَنٍ) جاز ذلك على غير عيب؛ لأنه يجعل ما الأولى جحدا والثانية في مذهب (الذي). وكذلك لو قال: (مَنْ مَنْ عندك؟) جاز؛ لأنه جعل من الأول استفهاما, والثاني على مذهب (الذي) فإذا اختلف معنى الحرفين جاز الجمع بينهما [...وكذلك] قوله: (لَمْ أَرَه منذ يوم يوم) فإنه يُـــنْـــوَى بالثاني غير اليوم الأول، إنما هو في المعنى: لم أره منذ يوم تعلم"[15]

ولا شك أن غياب النطاق التنغيمي أو عدم التنبه إليه أدى إلى الخلط وتضارب التأويل في دلالة بعض الأدوات عند النحاة القدامى كما أن ثمة قوالب تركيبية تشترك في صيغة صرفية واحدة من قبيل "أفعل" التي تدل على التفضيل وغيره، ولكن النطاقات التنغيمية التي يبثها المتكلم ويتلقاها المستمع هي التي تحسم في الأمر، وذلك ما انتبه إليه بعض علماء القراءة القدماء من قبيل السمرقندي في قوله في سياق حديثه عن "أفعل": "فينبغي أن يفرق بالصوت بين الذي بمعنى التفضيل، والذي ليس بمعنى التفضيل".[16]

وحاصل القول: إن التنغيم "ينهض وحده دليلا على المعنى ومفصحا عن الغرض، ومبينا للمقصود من الكلام، ومن خلالها يوقف على الدور الذي يؤديه التنغيم في هذه اللغة العربية، إذ لولا التنغيم لكان في ذلك لبسا وتعمية."[17] ليس على مستوى الدلالة التي تحدد النطاقات التنغيمية بؤرتها فحسب، ولكن أيضا على مستوى التركيب من خلال ما تنسجه المقولات من وشائج فيما بينها.

وإذا كانت الأدبيات النحوية العربية قد أسندت إلى العلامات الإعرابية مهمة التمييز بين المقولات التركيبية، فإن هذه المهمة كثيرا ما تتعثر بسب استحالة ظهور العلامة الإعرابية لسبب من الأسباب، ومن هنا لابد أن تتدخل المصفاة التنغيمية لرفع هذا اللبس التركيبي، وذلك ما جنح إليه الفراء في تحديد مقولة الفاعلية في الآية القرآنية: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾[18] "وإن شئت جعلت (من) في موضع رفع، وهو أحب الوجهين إلي؛ لأن التلاوة تدل على معنى الرفع [...] وقد قال هذا القول الكسائي ورفع (من)"[19]؛ أي جعلها فاعلا وهذا مما يسميه الفراء نفسه "إعراب بالدلالات لا بالحركات"[20]؛ فالتنغيم رفع اللبس التركيبي وحدد للمستمع أن لفظة (من) التي لا يظهر عليها إعراب هي فاعل الجملة. وهذا يشبه قول القائل: هنّأ عيسى موسى، فلابد أن يتدخل التنغيم لتحديد الفاعل. والمفعول، أو قول المتحدث بالدارجة المغربية: (ضرب محمدْ عليْ)؛ فالمصفاة التنغيمية تتدخل في صورة وقفة أو سكتة للتفريق بين المركبات التنغيمية والنطاقات التنغيمية، لتحدد الفاعل والمفعول وترفع اللبس التركيبي.

والخلاصة أن التنغيم يسهم في رفع اللبس التركيبي والصرفي من خلال نطاقاته التنغيمية المتنوعة. وهذا يدعم فرضية إسهامه في اشتقاق البنية العميقة، والعمل بدور المراقبة للتركيب، بل إن تلك المصفاة قد تخرق التركيب وغيره من مراحل اشتقاق الجملة المفترضة.[21]

3.2 وظيفة التنغيم الدلالية ودورها في التواصل اللساني: ويقصد بهذه الوظيفة دور التنغيم الفاصل في التفريق بين دلالات السلسلة الكلامية الواحدة وهذا ملحوظ في لغات متعددة من قبيل اللغة الإنجليزية؛ حيث إن الكلمة الواحدة تتمايز معانيها بحسب ما يرافقها من نطاقات التنغيم، فالكلمة (الجملة) الإنجليزية(yes) على سبيل المثال، التي تشكل المثال (هـ): يمكن أن تنطق بالأشكال التنغيمية الآتية فيتغير معناها:

هـ.1. Yes هابط = جملة تقريرية تعني: "أوافق."

هـ.2. Yes عال = سؤال: "هل قلت نعم؟"

هـ.3. Yes منخفض = طلب استمرار: "أنا منصت، استمر."

هـــ.4. Yes صاعد – هابط = احتمال: "من الممكن أن يكون."

هـــ.5. Yes هابط – صاعد = توكيد: "أنا متـــأكد"[22]

وفي الجملة العربية يؤدي التنغيم، كذلك، وظيفة دلالية؛ حيث لاحظ أسلافنا أن الأسلوب الواحد يخرج إلى معان عديدة ودلالات مختلفة، ولا شك أن التنغيم هو العامل الأبرز في هذا التنوع الدلالي، مع ما يرافقه من ملامح تطريزية أخرى أو ملامح اللسانيات الخارجية، أي ما سماه القدماء القرائن الحالية.

كما أن التنغيم في الجملة العربية يوازي، من حيث الدلالة، عبارات بأكملها من قبيل استمهال المتكلم للسامع، وإعلامه باستمرار الكلام، وذلك في باب التذكر، أو من قبيل إعلام السامع وإيقافه على مدى التفجع والتحسر على المندوب وذلك في باب الندبة، والإطالة لإفادة الاستنكار والتعجب في باب الإنكار، يقول ابن جني في **مد التذكر على سبيل المثال**: "وأما مدها [أي الألف] عند التذكر، فنحو قولك: أخواك ضربا، إذا كنت متذكرا للمفعول به أو الظرف أو نحو ذلك أي ضربا زيدا ونحوه. وكذلك تمطل الواو إذا تذكرت في نحو: ضربوا إذا كنت تتذكر المفعول أو الظرف أو نحو ذلك أي ضربوا زيدا، أو ضربـــوا يـــوم الجمعة، أو ضربوا قياما فتتذكر الحال. وكذلك الحال في نحو: اضربي، أي اضربي زيدا ونحوه. وإنما مطلت ومددت هذه الأحرف في الوقف وعند التذكر، من قبل أنك لو وقفت عليها غير ممطولة ولا ممكنة المدة، فقلت: ضربا وضربوا واضربي وما كانت هذه حاله وأنت مع ذلك متذكر لم توجد في لفظك دليلا على أنك متذكر شيئا، ولا أوهمت كل الإيهام أنك قد أتممت كلامك ولم يبق من بعده مطلوب متوقع لك؛ لكنك لما وقفت ومطلت الحرف علم بذلك أنك متطاول إلى كلام تال للأول منوط به معقود ما قبله على تضمنه وخلطه بجملته.

(...) ويدل على ذلك أن العرب لما أرادت مطلهن للندبة وإطالة الصوت بهن في الوقف، وعلمت أن السكوت عليهن ينتقصهن ولا يفي بهن، أتبعتهن الهاء في الوقف؛ توفية لهن وتطاولا إلى إطالتهن (...) والمعنى الجامع بين التذكر والندبة قوة الحجة إلى إطالة الصوت في الموضعين فلما كانت هذه حال هذه الأحرف وكنت عند التذكر كالناطق بالحرف المستذكر، صار كأنه هو ملفوظ به فتمت هذه الأحرف وإن وقعن أطرافا؛ كما يتمهن إذا وقعن حشوا لا أواخر. فاعرف ذلك. فهذه حال الأحرف الممطولة. وكذلك الحركات عند التذكر يمطلن حتى يفين حروفا. فإذا صرنها جرين مجرى الحروف المبتدأة توام، فيمطلن أيضا حينئذ كما تمطل الحروف"[23]. ويطلق أبو الفتح في موضع آخر على مد تذكر همزة تذكر[24]. فعند التذكر يرتفع الصوت ويزيد وذلك يعني من المتكلم أنه في

حالة استذكار، وأن رسالته الكلامية لم تنته، ومن ثم لم تكتمل الدلالة بعد، مما يجعل المتكلم في حالة انتظار لبقية الرسالة الكلامية.

وتبرز الوظيفة الدلالية للتنغيم من خلال تحويله للمعاني والدلالات أو ما سماه ابن جني "تقوية المعنى في النفس"، وقلبه تماما وهذا ما نقف عليه في قوله: "وعلى ذكر طول الأصوات وقصرها لقوة المعاني المعبر بها عن وضعها ما يحكى أن رجلا ضرب ابنا له، فقالت له أمه: لا تضربه، ليس هو ابنك؛ فرافعها إلى القاضي فقال: هذا ابني عندي، وهذه أمه تذكر أنه ليس مني. فقالت المرأة: ليس الأمر على ما ذكره، وإنما أخذ يضرب ابنه فقلت له: لا تضربه ليس هو ابنك [ابناك]، ومدت فتحة النون جدا، فقال الرجل: والله ما كان منه هذا الطويل الطويل".[25] فما فهمه الأب من خلال تنغيم معين، رفضته زوجته أمام القاضي، مدعية أن تنغيمها عن طريق مد فتحة النون ومطل الصوت بها إنما هو دلالة على تنبيهها له على ضربه الطويل والشديد لابنهما واستنكارها لذلك الفعل، فأقسم بحضرة القاضي نافيا هذا الطول وهذه القسوة، أي هذا التنغيم: "والله ما كان هذا الطويل الطويل"، فوضع تنغيم الطول على كلمة الله، ولفظتي الطويل الطويل، وهذا يعني أنه ينفي أن يكون ضربه طويلا وشديدا إلى هذا الحد الذي أشارت إليه الزوجة من خلال تنغيمها بمد فتحة نون "ابنك" ومطل الصوت بها. وبهذا تتبين الخطورة الدلالية للتنغيم؛ إذ يوازي عبارات كاملة، وتترتب عليه أحكام ومواقف.[26]

إن الأساليب تحافظ على بنياتها التركيبية ولكن دلالتها تتغير بتغير النطاقات التنغيمية "حيث تكون النغمة هي العنصر الوحيد الذي تسبب عنه تباين هذه المعاني لأن هذه الجمل لم تتعرض لتغيير في بنيتها ولم يضف إليها أو يستخرج منها شيء ولم يتغير فيها إلا التنغيم وما قد يصاحبه من تعبيرات الملامح وأعضاء الجسم مما يعتبر من القرائن الحالية"[27]. وبهذا تصبح المعاني تتلعب بالألفاظ، فيما يقوم التنغيم بخاصة والأداء بعامة دليلا على الدلالات والمقاصد. ومن هنا يمكننا القول إن التنغيم يقوم برفع اللبس الدلالي بين الجمل[28]، مما يسر عملية التواصل بين المتكلم والمستمع.

3. خلاصة:

لقد تبين من خلال هذا العرض لوظائف التنغيم: الانفعالية التعبيرية، والتركيبية، والدلالية الدور المؤثر لهذا الملمح التطريزي في العملية التواصلية اللسانية، وهو بذلك يؤازر العناصر اللسانية ذات الصبغة التركيبية والصرفية... والعناصر غير اللسانية من قبيل الظواهر المصاحبة للغة، أو يسهم في إزالة ما ينجم من التباسات دلالية وتركيبية عن كل أشكال التفاعل التي تدخل فيها.

[1] – التنغيم هو نسق من مستويات الهبوط والصعود ومن تنوعات العلو الموسيقي التي ترافق كل جملة أو قول ، فيكون لكل منها قالب تنغيمي. وتسمى تلك المستويات نطاقات أو منحنيات تنغيمية.

[2]– بنكراد، سعيد (2005): استراتيجيات التواصل: من اللفظ إلى الإيماءة، ص. 3.

[3] - Uldall, E (1961): Dimensions of Meaning in Intonation, p, 250.

[4] - Fox, A (2000): Prosodic Features and Prosodic Structure, P. 269.

[5] – Abercrombie, D (1967): Elements of General Phonetics, P.103- 104.

[6] - انظر: Brosnahan, L.F, Malmberg, B (1970): Introduction to Phonetics, P. 154.

[7]– ابن كثير، القرشي الدمشقي (1994): تفسير ابن كثير، ج. 4، ص. 219.

[8]– الفيومي، أحمد عبد التواب (1991): أبحاث في علم أصوات اللغة العربية، ص. 187.

[9]– الجوارنة، يوسف عبد الله (2002): التنغيم ودلالته في اللغة العربية، ص. 38.

[10]– الهمذاني، أبو العلاء العطار (مخطوط): التمهيد، ص. 119ظ– 120و، نقلا عن: قدوري، غانـــم الحمد (1986): الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص. 567.

[11]– البابيي، أحمد (2006): القضايا التطريزية في القراءات القرآنية، ج. 1، ص. 275.

[12]– المرجع نفسه، ص. 389.

[13]– حنون، مبارك (1997): في بنية الوقف وبنينة اللغة، ج. 2، ص. 529.

[14]– البابيي، أحمد (2006): القضايا التطريزية في القراءات القرآنية، ج. 1، ص. 391.

[15]– الفراء، أبو زكرياء يحيى بن زياد (د.ت): معاني القرآن، ج. 1، ص. 176– 177.

[16]– السمرقندي، محمد بن محمود بن محمد (مخطوط): روح المريد في شرح العقد الفريد في نظم التجويد، 139ظ نقلا عن: قدوري، غانم الحمد (1986): الدراسات الصوتية عند علماء التجويد، ص. 568.

[17] – الفيومي، أحمد عبد التواب (1991): أبحاث في علم أصوات اللغة العربية، ص. 195.

[18] – سورة الأنفال، آ: 63.

[19] – الفراء، أبو زكرياء يحيى بن زياد (د.ت): معاني القرآن، ج. 1، ص. 417–418.

[20] – المصدر نفسه، ج. 2، ص. 85.

[21] – البابيي، أحمد (2006): القضايا التطريزية في القراءات القرآنية، ج. 1، ص. 396.

[22] – Ladefoged, P. (1975): a Course of Phonetics, P. 103.

[23] – ابن جني، أبو الفتح عثمان (1983): الخصائص، ج. 3، ص. 128–133.

[24] – المصدر نفسه، ج. 2، ص. 337.

[25] – ابن جني، أبو الفتح عثمـــــان (1994): المحتسب في تبيين وجوه شـــواذ القراءات والإيضاح عنها، ج. 2، ص. 210.

[26] – البابيي، أحمد (2003): التنغيم عند ابن جني، ص. 13.

[27] – حسان، تمام (د.ت): اللغة العربية معناها ومبناها، ص. 228.

[28] – البابيي، أحمد (2006): القضايا التطريزية في القراءات القرآنية، ج. 1، ص. 297